استهلال

على إثر تفجر الأزمة الأخيرة للرأسمالية في 2008، راج كارل ماركس مجددًا. فعلى نقيض التوقعات التي قالت عقب سقوط حائط برلين إن النسيان سيطويه، رجعت أفكار ماركس مرةً أخرى موضوعًا للتحليل والتطوير والمناقشة، وبدأ كثيرون في طرح أسئلة جديدة حول مفكر تم تصنيفه زورًا في أحيان كثيرة كملهم لـ"الاشتراكية المتحققة بالفعل"، ثم نُحي جانبًا بعد 1989.

وصفت صحف ودوريات مرموقة، ولها جمهور عريض من القراء، ماركس بأنه منظر جدّ معاصر وبعيد النظر. وقد صار الآن، تقريبًا في كل مكان ، موضوعًا رائجًا في الدراسات الجامعية والمؤتمرات الدولية. وعادت أعماله، التي أعيد طبعها أو ظهرت في طبعات جديدة، إلى الظهور من جديد على رفوف المكتبات. وبعد عشرين عامًا أو أكثر من الإهمال، حققت دراسة أعماله زخمًا جديدًا ومتزايدًا، منتجًة في بعض الأحيان أبحاثًا مهمة ورائدة.[1]

وقد كان لمواصلة نشر "الأعمال التاريخية–النقدية الكاملة لماركس وإنجلز" (MEGA) في 1998 قيمة خاصة في مجال إجراء إعادة تقييم شاملة لإنجاز ماركس. ظهر حتى الآن ستة وعشرون مجلدًا، وهناك مجلدات أخرى في طور الإعداد. تحتوي هذه المجلدات على نسخ جديدة من بعض أعماله (مثل "الأيديولوجيا الألمانية")، وكل مخطوطاته التحضيرية لـ"رأس المال"، والرسائل التي أرسلها (وكذلك مختارات من الرسائل التي تلقاها) خلال مراحل هامة في حياته، وحوالي مائتي دفتر ملاحظات تضم مقتطفات من الأعمال التي كان يقرأها والانطباعات التي كان يدونها حول تلك القراءات. وتعد هذه الأخيرة بمثابة الورشة التي طور فيها نظريته النقدية، كما أنها تبين لنا خط السير المعقد لإنتاج أفكاره، والمصادر التي اعتمد عليها في تطويرها.

تقدم لنا هذه المادة التي لا تقدر بثمن، وغير المتاح أغلبها إلا باللغة الألمانية، مما يحصر الاطلاع عليها داخل دوائر محدودة من الباحثين، كاتبًا مختلفًا تمامًا عن ذلك الذي قدمه لنا عدد كبير من ناقديه، وكذلك عن ذلك الذي قدمه لنا كثير من أنصاره المزعومين لوقت طويل. الحقيقة أن ما تنطوي عليه تلك الأعمال الكاملة من نصوص جديدة، يتيح لنا أن نقول إن من بين كلاسيكيات الفكر السياسي والفلسفي، كان ماركس هو الشخص الذي تغيرت صورته أكثر من غيره في السنوات الأخيرة. لقد ساعدت معطيات المشهد السياسي في أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتي على تحرير ماركس من دور رمز جهاز الدولة السوفييتية الذي نسبوه له هناك.

---

[1] لاستعراض الدراسات المنشورة عن ماركس مؤخرًا، انظر Marx's Global Reception Today, in Marcello Musto (ed.), *Marx for Today*. London: Routledge, 2012, pp. 170-234. Cf. also Marcello Musto (ed.), *The Marx Revival*. Cambridge: Cambridge University Press, forthcoming 2018.

يشير تقدُم البحث، جنبًا إلى جنب مع الظروف السياسية المتغيرة، إلى أن التجديد في تأويل أفكار ماركس ظاهرة مقدر لها الاستمرار. والاحتمال الأكبر أن جزءًا كبيرًا من هذا الاهتمام سيركز على المرحلة الأخيرة من إنتاجه النظري، أي على "ماركس الأخير". الدراسة الحالية، أيضًا، وهي معدة كـ"سيرة فكرية" لماركس، سوف يتبعها ويكملها بحث حصري شامل لفكره.

ينهي تحليل المخطوطات التي كتبها ماركس في السنوات الأخيرة من حياته كليةً الأسطورة التي تقول إنه فقد فضوله الفكري وتوقف عن العمل في تلك السنوات. فالحق أنه لم يقتصر في تلك المرحلة فقط على مواصلة بحثه، بل توسع به إلى مجالات معرفية جديدة.

قام ماركس خلال عامي 1881 و1882 بدراسة معمقة للاكتشافات الأخيرة في الأنثروبولوجيا، فيما يتعلق بالأشكال المشاعية للملكية في المجتمعات ما قبل الرأسمالية، والتغيرات التي أعقبت إلغاء القنانة في روسيا، وميلاد الدولة الحديثة. كما أنه تابع عن قرب الأحداث الرئيسية في السياسة العالمية، كما يمكن أن نرى من خلال خطاباته التي عبر فيها عن دعمه الحاسم للنضال الإيرلندي التحرري، ومعارضته الثابتة للاضطهاد الاستعماري في الهند ومصر والجزائر. يمكنك أن تقول عن ماركس ما شئت، عدا أنه ذو نزعة مركزية–أوروبية أو ميول اقتصادوية، أو أن تركيزه كان منصبًا على الصراع الطبقي فقط.

اعتقد ماركس أن دراسة صراعات سياسية جديدة وموضوعات ومناطق جغرافية جديدة أمرًا جوهريًا لنقده المستمر للنظام الرأسمالي. فقد مكنه ذلك من الانفتاح على خصوصية البلدان المختلفة، ومن التفكير في إمكانية وجود مقاربة للاشتراكية تختلف عن تلك التي طورها من قبل.

وأخيرًا، فإن "ماركس الأخير" هو الأكثر حميمية: فهو لم يخف هشاشته في الحياة بل استمر يناضل، لم يتجنب الشك بل واجهه بوضوح، واختار أن يغوص أكثر في البحث بدلا من الركون إلى اليقين الذاتي والمدائح غير النقدية من "الماركسيين" الأوائل. هذا الـ"ماركس" شديد الندرة، هدام بشكل جذري، متكاثر، مغاير كليًا لصورة أبي الهول القرن العشرين الجرانيتية التي تشير إلى المستقبل بيقين دوجمائي. إنه يشير إلى نوع جديد من الباحثين والنشطاء السياسيين، الذين يتبنون ويواصلون النضال الذي كرس، هو ومثله كثيرون من قبل ومن بعد، كل وجوده من أجله.

مدخل: "النضال!"

في أغسطس 1880 كان چون سوينتون (1829–1901)، وهو صحفي أمريكي واسع التأثير وذو رؤى تقدمية، في رحلة إلى أوروبا.[2] وقد قام أثناء تواجده هناك بزيارة إلى مدينة رامسجيت، وهي مدينة ساحلية صغيرة في مقاطعة كِنت تقع على بعد كيلومترات قليلة من أقصى جنوب شرق إنجلترا. كانت الهدف من الرحلة هو إجراء مقابلة صحفية لصالح جريدة الصن –التي كان يرأس تحريرها، والتي كانت آنذاك من بين الأكثر انتشارًا بين القراء في الولايات المتحدة الأمريكية– مع الرجل الذي كان قد أصبح أحد الممثلين الرئيسين للحركة العمالية الدولية: كارل ماركس.

ورغم أن ماركس كان ألمانيًا بالميلاد، إلا أنه أصبح بلا جنسية بعد أن طردته حكومات فرنسا وبلجيكا وبروسيا أثناء وأدها الحركات الثورية التي ظهرت في بلدانها بين عامي 1848 و1849. وعندما قدم طلبًا للحصول على الجنسية في بريطانيا في 1874، رُفض طلبه لأن تقريرًا من جهاز سكوتلاند يارد وصفه كـ"محرض ألماني سيئ السمعة ومناصر للمبادئ الشيوعية... لا يتسم بالولاء لملكه أو حكومته".[3]

كان ماركس مراسلًا لجريدة نيويورك تريبيون على مدى أكثر من عقد من الزمان. وفي عام 1867 نشر نقدًا تأسيسيًا لنمط الإنتاج الرأسمالي تحت عنوان "رأس المال". ولمدة ثماني سنوات، بداية من 1864، كان الشخصية القيادية في "رابطة العمال الدولية" (International Workingmen Association). وفي عام 1871 ظهر اسمه على صفحات أكثر الصحف الأوروبية انتشارًا، وذلك بسبب دفاعه عن كوميونة باريس في كتاب "الحرب الأهلية في فرنسا"، وهو الأمر الذي دعا الصحافة الرجعية إلى تعميده تحت اسم "دكتور الإرهاب الأحمر".[4]

في صيف 1880 كان ماركس مع عائلته في رامسجيت مأمورًا من الطبيب بـ"عدم القيام بأي عمل أيًا كان نوعه"[5] وذلك "لإنعاش جهازه العصبي المتداعي". كانت صحة زوجته جيني أكثر سوءًا من صحته. إذ كانت جيني فون وستفالين تعاني من السرطان، وقد تدهورت حالتها فجأة إلى درجة تهدد باقتراب نهاية مفجعة.[6] كان هذا هو الوضع الذي تعرف فيه سوينتون –رئيس تحرير صحيفة نيويورك تايمز طوال ستينيات القرن التاسع عشر– على ماركس ورسم له صورة متعاطفة ومكثفة ومتقنة.

---

[2] انظر 'John Swinton, Crusading Editor', in Sender Garin, *Three American Radicals: John Swinton, Charles P. Steinmetz, and William Dean Howells*. Boulder: Westview Press, 1991, pp. 1-41.

[3] انظر تقرير الشرطة '[Declaration by Karl Marx on His Naturalisation in England]', in MECW, vol. 24, p. 564.

4 انظر Karl Marx to Friedrich Sorge, 27 September 1877, in MECW vol. 45, p. 27.

5 Karl Marx to Ferdinand Nieuwenhuis, 27 June 1880, in MECW, vol. 46, p. 16.

6 Karl Marx to Nikolai Danielson, 12 September 1880, in MECW, vol. 46, p. 30.

وصف سوينتون ماركس على المستوى الشخصي هكذا: "رجل في ستيناته، ذو رأس ضخمة، كريم، ودود، دمث، له كتل من الشعر الرمادي الكثيف والطويل، يعرف بشكل لا يقل اكتمالًا عن فيكتور هوجو فن أن تكون جدًا لأحفاد".[7] أما عن حديثه، الـ"حر جدًا، والمكتسح بقوة، والمبدع للغاية، والقاطع تمامًا، والصادق إلى أبعد مدى"، فقد ذكّر سوينتون بسقراط "بلمساته الساخرة، وفكاهاته اللامعة، وبهجته المسلية". وقد لاحظ سوينتون أيضًا أن ماركس "رجلًا ليست لديه ميول استعراضية أو رغبة في الشهرة، وخال تمامًا من الاهتمام بالمظاهر وعلامات النفوذ".

على أن هذا لم يكن ماركس الذي سيصفه سوينتون لقرائه. فالحوار الذي نشر في الصفحة الأولي من جريدة الصن في 6 سبتمبر 1880، قدم، بصفة رئيسية، الوجه العام –وليس الشخصي– لماركس: "واحد من أكثر الأشخاص الذين يجذبون الانتباه اليوم. لعب دورًا غامضًا، ولكنه واسع الأثر، في السياسة الثورية خلال الأربعين عامًا الماضية".

كتب سوينتون عن ماركس: "ليس متعجلًا وليس خاملًا؛ رجل ذو عقل نشط ورحب ورفيع المستوى، جعبته ممتلئة بالمشاريع طويلة المدى والمناهج المنطقية والأهداف العملية؛ لقد وقف ولا زال خلف أغلب الزلازل التي رجت أممًا ودمرت عروشًا، وهو الآن يهدد ويرعب رؤوسًا متوجة ومحتالين ذوي نفوذ أكثر من أي إنسان آخر في أوروبا".[8]

أقنع النقاش مع ماركس الصحفي القادم من نيويورك أنه أمام رجل "متعمق في الواقع الراهن" ويده الممتدة "من نهر النيفا إلى نهر السين، ومن جبال الأورال إلى جبال البرانس"، تمهد الطريق لمجيء العصر الجديد. لقد انبهر الصحفي بماركس بسبب قدرته على "استعراض العالم الأوروبي بلدًا بعد الآخر، مشيرًا إلى الخصائص والتطورات والشخصيات فوق السطح أو تحته".

ثم واصل ماركس الحديث عن: "القوى السياسية والحركات الشعبية في مختلف بلدان أوروبا: التدفق الواسع لروح روسيا، وحركات العقل الألماني، والنشاط الفرنسي، والجمود الإنجليزي. وتحدث بأمل عن روسيا، وبتفلسف حول ألمانيا، وبابتهاج عن فرنسا، وبشكل مغموم عن إنجلترا، مشيرا بازدراء إلى الإصلاحات شديدة التفاهة التي يبدد فيها ليبراليو البرلمان البريطاني وقتهم".[9]

تفاجأ سوينتون أيضًا بمعرفة ماركس بالولايات المتحدة. كان مراقبًا يقظًا و"ملاحظاته حول بعض القوى التكوينية والتأسيسية في الحياة الأمريكية منشطة للذهن جدًا".

انقضى اليوم في سلسلة من المناقشات المفعمة بالحيوية. وبعد الظهر اقترح ماركس السير بمحاذاة البحر إلى الشاطئ ليقابل أسرته، التي وصفها سوينتون، بأنها "جمع مبهج– حوالي عشرة أشخاص". وعند حلول

---

[7] Karl Marx, '[Account of an Interview with John Swinton, Correspondent of The Sun]', 6 September 1880, in MECW, vol. 24, pp. 583-4.

[8] المرجع السابق، ص 583.

[9] المرجع السابق.

المساء استمر صهرا ماركس، تشالرز لونج (1839–1903) وبول لافارج (1842–1911)، في رفقتهما. ودار الحديث حول "العالم والإنسان والعصر الحاضر والأفكار، بينما رنين الكؤوس يقرع على الشاطئ".

في لحظة كتلك، غامر الصحفي الأمريكي، بينما كان "التفكير في هذيان ودمار العصر الحاضر يدور في رأسه"، وبينما كان مستغرقًا في أعماق "حديث اليوم ومشاهد المساء"، بسؤال الرجل العظيم سؤالًا "يمس القانون النهائي للوجود". وقتها، وبعد دقيقة من الصمت، قام الصحفي "باستجواب الثوري والفيلسوف في مسألة مصيرية: ما هو "قانون الوجود"؟" شعر سوينتون أن عقل ماركس قد "زاغ لوهلة بينما راح ينظر إلى البحر الصاخب أمامه والهدير الهائج للمياه على الشاطئ". وأخيرًا أجاب في نبرة عميقة ومهيبة "النضال!".[10]

ظن سوينتون في البداية أنه يسمع في تلك الإجابة "صدى اليأس". ولكنه وافق فيما بعد: "النضال فعلًا هو قانون الحياة الذي حاولت البشرية دائمًا أن تفهمه".[11]

[10] المرجع السابق، ص585.

[11] المرجع السابق.